

2011

## اغتراب الإنسان المعاصر

محمد عبد الرحمان الجابري  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، جامعة ابن زهر، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Sociology Commons](#)

### Recommended Citation

الجابري, محمد عبد الرحمان (2011) "اغتراب الإنسان المعاصر" *Dirassat*. Vol. 14 : No. 14 , Article 6.  
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol14/iss14/6>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in *Dirassat* by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

---

## اغتراب الإنسان المعاصر

### Cover Page Footnote

الإشكالية صفة أو خاصية لحكم أو قضية التي يمكن أن تكون صادقة ، إلا أنه لا يقطع بصدقها، راجع 1- Vocabulaire, Technique et critique de la philosophie, par André Lalande, Presses Universitaires de France, Paris, 1968, محمود رجب، تيارات فلسفية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1967، ص44- 2- 835.

## اغتراب الإنسان المعاصر

د. محمد عبد الرحمان جابري  
قسم كلية الآداب والعلوم الإنسانية  
أكادير

لكل مذهب فكري إشكاله الخاص (problématique)<sup>(1)</sup>، أو على الأصح إطاره الإشكالي المميز الذي تدور في نطاقه كل تفاصيله وجزئياته، بل إن كل مذهب أو تيار فكري معين ينبغي أن يُفهم على أنه يؤلف كلا متكاملًا، وهو وحدة ذلك الإطار الإشكالي التساؤلي الذي تتوخى الإجابة عنه.

سنحاول في هذا الإطار بحث مفهوم الاغتراب (Aliénation)، ذلك أن هذا العمل من شأنه أن يعالج أحد جوانب مأزق الإنسان المعاصر، إذ يذهب بعض المفكرين إلى القول بأن الاغتراب هو واحد من أضخم المشكلات التي تواجهنا اليوم، فليس هناك في نظري مشكلة أخرى غيرها تملك في السنوات الأخيرة اهتمام المفكرين والفلاسفة المعاصرين، وتشغل حيزًا كبيرًا في تفكيرهم. وما أحسب كذلك أن هناك مشكلة أخرى غيرها ألصق بواقع الإنسان المعاصر ووجوده، فإنسان هذا العصر إنسان مغترب، والفيلسوف ما هو إلا بمثابة المعيار أو المقياس الذي يقيس حال الاغتراب الذي نعيش فيه. فإن جاء فيلسوف وعبر عن هذه المشكلة - حتى ولو لم يكن ينتمي إلى عصرنا الحاضر - كان بلا شك معاصرًا لنا، وكانت فلسفته أو المشكلة التي يبحثها حية، ومعنى ذلك أن هذه المشكلة تدفع الناس، وتحركهم، إما إلى الإحساس بها، أو التفكير فيها أو العمل لحلها<sup>(2)</sup>.

لقد سبق أن أشار أفلاطون وأرسطو إلى أن الفلسفة تبدأ بالتساؤل أو الدهشة، وبوسع المرء كذلك أن يقول إنها تبدأ حينما يصدمه شيء بغرابته، وأن الفلسفة هي وليدة الغربة، حيث يمكن أن يكون اغترابًا عن الذات أو الكون أو نسق من الأفكار، أو قناعة أخلاقية، أو قانون، ومثل هذا الاغتراب قد لا يكون بالضرورة مجرد حدث فكري، بل قد يشمل غربة

(1) الإشكالية (problématique) صفة أو خاصية لحكم أو قضية التي يمكن أن تكون صادقة، إلا أنه لا يقطع بصحتها. راجع:

Vocabulaire, *Technique et critique de la philosophie*, par André Lalande, Presses Universitaires de France, Paris, 1968, p. 835.

(2) محمود رجب، تيارات فلسفية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1967، ص. 44.

عميقة عن إيمان وأخلاقيات مجتمعنا<sup>(3)</sup>، إلا أنه على الرغم من الذبوع الهائل لهذا الاصطلاح (الاغتراب)، فإن عددا قليلا من الناس فقط لديهم فكرة واضحة تماما عما يعنيه على وجه الدقة. لهذا السبب نجد أنفسنا، قبل الحديث عن هذا الموضوع، مضطرين لتحديد الدلالة الاشتقاقية لاصطلاح (الاغتراب)، ورصد أصوله ومنابعه وأنواعه.

ويمكننا تتبع اصطلاح الاغتراب خلال نسيج اللغتين الفرنسية والإنجليزية، ولا يزال هذان الاصطلاحان يحتفظان باستخداماتهما الأصلية، بل إن كافة الاستخدامات الواردة في المعاجم الحديثة مستمدة حقيقة من هذه الاستخدامات.

### اصطلاح الاغتراب

إن الأصل اللاتيني لكلمة الاغتراب هو *Aliénation*، ويستمد هذا الاسم معناه من فعل *Aliénare*، بمعنى تحويل شيء ما لملكية شخص آخر أو انتزاعه أو إزالته، وهذا الفعل مستمد بصفة نهائية من لفظ (*Alus*) الذي يعني الآخر، سواء كاسم أو صفة<sup>(4)</sup>.

الاغتراب بمعنى نقل الملكية: ترتبط إحدى الاستخدامات اللاتينية الأساسية للفظي *Aliénation* و *Aliénare* بما يتعلق بالملكية. وفي هذا الصدد فإن فعل *Aliénare* يعني حرفيا، جعل شيء ما منتميا إلى شخص آخر. ومن هنا تأتي ملاءمة الاشتقاقات المستمدة من لفظ (*Aliens*)، وبالمثل فإن في وسع المرء أن يعثر في اللغة الإنجليزية المنتمية إلى العصر الوسيط على فعل يفيد قيام شخص ما بتغريب شيء يمتلكه، مثل الأراضي أو المنازل؛ ولا يزال لفظ "الاغتراب" و"غرب" يحملان هذا المعنى إلى اليوم على نحو ما تشهد به المعاجم. ففي المعجم الفلسفي من المثال نقرأ ما يلي:

اغتراب *Aliénation* معنى يفيد عملية تحويل منتجات النشاط الإنساني والاجتماعي إلى شيء آخر مستقل عن الإنسان ومتحكم فيه<sup>(5)</sup>، كما يعني الحد الأكثر عمومية لتعيين الاضطرابات العميقة للفكر<sup>(6)</sup>.

(3) ريتشارد شاخت (Richard Chart) الاغتراب، ترجمة: يوسف حسن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص. 19.

(4) ريتشارد شاخت (Richard Chert)، المصدر السابق، ص. 5.

(5) مراد وهبه، ويوسف كرم، المعجم الفلسفي، القاهرة، 1971، ص. 22.

(6) André Lalande, *Vocabulaire technique et critique de la philosophie*, op. cit., p. 36.

## ما هي أنواع الاغتراب؟

هناك أنواع عديدة من الاغتراب، وسنقتصر هنا على بعض منها:

### 1- اغتراب الروح

يرى الفيلسوف الألماني هيغل أن العالم هو الروح في حالة اغتراب، هذا النوع من الاغتراب نجده عند هذا الفيلسوف، وخاصة في مؤلفه "فينومينولوجيا الروح"<sup>(7)</sup>.

فالاغتراب بهذا المعنى هو حالة الوعي التي يخرج فيها من ذات الإنسان ويصير شيئاً، وتصبح الروح عندئذ موجودة لذاتها، وبعدئذ تصبح طبيعة، والطبيعة أي الروح في حال اغترابها. هذا النوع من الاغتراب - في نظر هيغل - أمر ضروري لا محيد عنه في سيرة الروح إذا أرادت أن تبلغ تمام المعرفة بذاتها، ولذلك فإن هيغل لا يعتبره (أي الاغتراب) ظاهرة غير صحية، بل إنها صحية وإيجابية. فالروح في تصورات هيغل أرادت أن تعرف نفسها، فاغتربت عن ذاتها، وتحددت في أضرب الحضارة المختلفة، من فلسفة وعلم ودين وفن، هذه الأضرب أو الضروب، وإن كانت جزءاً من الروح، فهي أيضاً أشياء غريبة عنها، اكتسبت وجوداً مستقلاً<sup>(8)</sup>. ويندرج تحت هذا النوع من الاغتراب، الاغتراب الإبداعي في الفن، والأدب، والعلم، فشكسبير مثلاً عندما أبدع شخصية هاملت، فإن هذه الشخصية حصلت على وجود مستقل عن الشاعر، أي أن هاملت شخص آخر غير شكسبير بوصفه خالقا ومبدعا له، وكلما صاغ الإنسان لحنا أو مفهوماً مجرداً، فإن ذلك كله يعلو على ذاته، بحيث يفقد أحياناً إدراكه للصلة القائمة بينه بوصفه خالقا، وبين تلك الأمور بوصفها مخلوقات، ويعددها أشياء قائمة بذاتها، متعالية عليه، وهو مبدعها وخالقها. والاغتراب الإبداعي أمر لا بد منه للإنسان إن أراد أن يحقق ماهيته بوصفه مبدعاً<sup>(9)</sup>.

### 2 - الاغتراب التكنولوجي

هذا النوع هو الذي يميز عصرنا الحاضر الذي هو عصر التكنولوجيا، ويرتبط ظهوره بتغيرات معينة حدثت في المجتمع الإنساني وبالثورة الصناعية. لقد وجدنا أنفسنا فجأة وجهاً لوجه أمام الآلات التي خلقها العلماء، فهي من ناحية تشبهنا، مثل العقل الإلكتروني الذي ينافسنا في الحساب، ومن ناحية أخرى، غريبة عنا أكثر من غربة العمل الفني

(7) راجع مؤلف هيغل "فينومينولوجيا الروح"، هذا المؤلف كان بمثابة المصدر الأساسي، والمنبع الحقيقي للفلسفة الهيغلية.

(8) محمود رجب، الاغتراب، مكتبة دار التأليف والنشر، القاهرة، 1965، ص. 19.

(9) المرجع نفسه، ص. 22.

أومنتجات العمل اليدوي، ومن حيث هي آلات أوتوماتيكية، يبدو أنها تسير وفقا لقوانينها الخاصة، معينة لنا طالما نحن مسيطرون عليها، ولكنها مهددة ومهلكة لنا بمجرد ما تتفلت قيادتها من زمام سيطرتنا.

خلق الإنسان عالما من صنعه لم يكن له وجود من قبل، وأنشأ نظاما اجتماعيا معقدا، يدير الجهاز الآلي الذي أقام بنيانه، ومع ذلك يتبعد عنه كل مخلوقاته وتتعالى عليه. إنه لا يشعر بنفسه خالقا، بل عبدا لما صنعت يده.

وهذا النوع من الاغتراب التكنولوجي ملحوظ في المجتمع الرأسمالي بشكل واضح، ونجد معالجة هيجل ونقده لهذا النوع من الاغتراب عندما كان المجتمع الرأسمالي وقتئذ في طور النشأة، فتمثل عظمة هذا الفيلسوف الألماني في أنه أدرك بوادر انهيار هذا المجتمع منذ ولادته. والوجودية على الخصوص هي الفلسفة التي تهتم بهذا الضرب من الاغتراب، وفي مقدمتها وجودية جان بول سارتر (J. P. Sartre) التي حاولت أن تتلمس الحلول لقهره والتغلب عليه. فالوجودي مغترب، لأن ذاته الحقيقية ضاعت منه في زحام الحياة اليومية، ولم يعد يشعر بالأنا، بل أصبح يشعر بالالأننا. والواقع أن الاغتراب التكنولوجي ظاهرة مرضية في المجتمع الرأسمالي، تنذر بخطر كبير للعلاقات الإنسانية، وانحاء شخصية الإنسان، أو استئصال إنسانيته. لكن الإنسان في المجتمع التكنولوجي مغترب، لأن حضارته الروحية والإنسانية داستها عجالات المجتمع الصناعي التكنولوجي، ولم تعد نتائج أعماله ملكا له، بل تجاوزته وأصبحت شيئا آخر غيره. فهؤلاء جميعهم غرباء، يعيشون في عالم غريب، عالم يناصرهم ويناصبونه العدا، عالم لم يعد لهم فيه هدف، ولا غاية، لأنه لم يعد عالمهم على الإطلاق<sup>(10)</sup>.

إن جوهر المشكلة عند هؤلاء أن العمل الذي يقوم به الإنسان بدلا من أن يشبع حاجاته الإنسانية، وبدلا من أن يكون وسيلة لتحقيق التكامل النفسي والتكامل الاجتماعي، وبدلا من أن يكون سبيلا لإقامة مجتمع إنساني اشتراكي عماده العدالة والمساواة، أصبح في ظل مجتمع الرأسمالي التكنولوجي الذي تحكمه قوانين العرض والطلب قوة غريبة عن الإنسان. وهنا يقع شقاء الإنسان الغربي المعاصر، ويقع في الوقت ذاته الخلاف العميق بينه وبين الإنسان العربي في المنطقة العربية، وهو ما يؤكد فؤاد زكريا بقوله: (-إن المقارنة بين موقف الأوروبيين من تراثهم، بل من تراثنا نحن أيضا، وموقف الثقافة العربية

(10) جلال العشري، الاغتراب، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، 1967، ص. 43.

من هذا التراث تكشف لنا عن مصدر أساسي من مصادر تخلفنا الفكري، هذا التخلف يتخذ شكل الاغتراب والتشتت، ولا يحمل في ثناياه انطلاقة جديدة من أجل النمو والتقدم، بل على العكس من ذلك، إنه يعبر بجلاء ووضوح عن العجز لمواجهة تحديات هذا العصر-(11).

ويقول أيضا في الموضوع نفسه : - العقل العربي في المرحلة الراهنة من تاريخه مغترب بصورة مزدوجة، وهو لا يتلقى هذا الاغتراب من الخارج، أو من قوة تفرضه عليه، بل إنه هو الذي يفرضه على ذاته بإصرار وعناد، فتكون النتيجة الوحيدة لذلك هي بقاؤه حيث هو، على حين أن العالم من حوله يجري بسرعة مذهلة لكي يحتل في كل يوم مواقع جديدة يغزوها العقل السليم-(12).

وفي هذا الإطار، يرى فؤاد زكريا أن ثمة نوعين من الاغتراب:

○ الاغتراب المكاني الذي يتمثل في المتكلمين من ثقافة بلاد غير بلادهم، ويقتبسون من بلاد بعيدة أسلوب حياتهم اليومية، ويمكن اعتبار هؤلاء مغتربين مكانيا، بمعنى أن جسمهم في أوطانهم، وعقلهم في أوطان أخرى بعيدة.

○ النوع الثاني من الاغتراب- في نظره - هو الاغتراب الزمني، وهو أشد خطرا من الأول، ذلك أن الذي يتحمس لنصرة التراث يغترب عن عصره وعن حاضره، ويتعلق بعصر تفصله عنه مسافات زمانية كبيرة. مثل هذا الضرب من الاغتراب الزمني لا محيد عنه بالنسبة إلى كل من يتلمس في التراث إجابات كاملة عن الأسئلة التي يثيرها العصر الحاضر، وبأن المرء قد كتب عليه أن يعيش في عصره ويتعلق بعصر آخر . وهذا هو قمة الاغتراب، وقمة العجز عن التكيف الذي يكشف وبوضوح التخلف الفكري.

وأيا ما كان الأمر، فالقضاء على الاغتراب التكنولوجي لا يكون بالدعوة إلى الهرب من المجتمع الصناعي، ولا المناداة بالتخلي عن التكنولوجي، لأنهما حقيقتان لا محيد عن قبولهما، ومن السذاجة بمكان رفضهما، والحل الأنسب لهذه المسألة يكمن في تجاوز الاغتراب التكنولوجي، ولا يكون ذلك إلا بجعل التكنولوجيا بوسائلها المختلفة في خدمة القيم الإنسانية، لا أن تكون غاية في ذاتها، وجعل الإنسان سيدا على الآلة التي خلقها هو لا عبدا لها.

(11) دفاثر فلسفية، إعداد وترجمة : الدكتور محمد سبيلا، والدكتور عبد السلام بنعيد العالي، دار توبقال للنشر، 2006، ص. 75.

(12) المرجع السابق نفسه.

### 3 - الاغتراب الاقتصادي أو الإنتاجي

هو نوع اهتم بدراسته الماركسيون، ومعناه أن الإنسان في المجتمع الرأسمالي تسلب قدرته على العمل والإنتاج، ويعامل كأنه "سلعة" تباع وتشتري، أو شيء استؤصلت منه إنسانيته. ولقد بين ماركس أن نشاط الإنسان في المجتمع الرأسمالي، ليس منفصلاً عن المنتجات التي يصنعها فحسب، بل يجد نفسه وقد تكيف وفق الأشياء، وتقولب في قوالبها<sup>(13)</sup>. بعبارة أخرى "تشيأ"، أي أصبح شيئاً من الأشياء لا أكثر، بحيث إن طاقة العمل تتحول إلى سلعة، لها قيمة وسعر، وبين ذلك في كتابه "نقد الاقتصاد السياسي" عندما ذهب إلى أن طاقة العمل ينظر إليها كأنها عنصر بسيط من عناصر رأس المال، والتشيؤ مظهر من مظاهر الاغتراب، ويقصد به على وجه العموم، أن الفرد يعامل كما لو كان شيئاً قد تحول إلى موضوع وفقد هويته، أي أنه قد فقد شخصيته التي هي مركز إنسانيته وجوهرها. ويقصد به على وجه الخصوص، أن القيمة أصبحت في المجتمعات الرأسمالية كيفية أو صفة من صفات الشيء مثلها مثل لونه وشكله وصلابته. إلخ.

هذا هو معنى الاغتراب عند الماركسيين، الذين يرون أن هناك علاقة جوهرية بين ظاهرة الاغتراب والملكية الخاصة، ولهذا فإن نظام العلاقات الرأسمالية تتميز بظاهرة اغتراب العمل، بهذا المعنى يفقد الإنسان حريته واستقلاله الذاتي من جراء تأثير الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والدينية، ويصبح بالتالي ملكاً لغيره، أو عبداً للأشياء المادية.

فالإنسان وفق هذا التصور يفقد نفسه عندما يصبح غريباً عنها وعندما يفقد حريته، ويصبح منصهراً في مجتمع لا يعترف له بأي استقلال ذاتي<sup>(14)</sup>.

وسنعرض هنا لبعض آراء وأفكار الكاتب الأمريكي ذوي الأصول الألمانية، إريك فروم (Erich Fromm)، الذي حاول تشخيص هذا المرض الاجتماعي (الاجتراب) في مؤلفه "المجتمع السليم"<sup>(15)</sup>، حيث قام الكاتب في هذا المؤلف ببلورة فكرة "الانفصال" أو وحشة الإنسان المعاصر في العالم الذي يعيش فيه، وضعف ارتباطه به. يقول في هذا الصدد: "إن جوهر مفهوم الاغتراب، هو أن العالم، أي الطبيعة، والأشياء والآخرين، ثم الإنسان نفسه قد أصبح غريباً بالنسبة للإنسان"<sup>(16)</sup>.

(13) راجع كتاب ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة وتحقيق: أنطونان حمصي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1970.

(14) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(15) Erich Fromm, The sane society, New York, ed. R. Mehart, 1955.

(16) Ibid.



ويتحدث فروم (Fromm) باستمرار عن الإنسان بصفة عامة، وعن أناس معينين، ومن الملاحظ كذلك أنه يتحدث عن العالم باعتباره غريبا عن الإنسان، وفي بعض الأحيان يصبح الإنسان المعاصر هو المغترب<sup>(17)</sup>.

يعترف هذا الكاتب بأن الفكر الذي صاغ مفهوم الاغتراب هما هيكل وماركس، كما يقرر بأنهما قاما بإرساء أسس فهم مشكلة الاغتراب.

وأيا كان الأمر فإن فروم (Fromm) يحاول أن يصف أعراض هذا الداء الاجتماعي، والعلة التي اشتدت وطأتها على أبناء هذا العصر، ففقدوا سعادتهم النفسية وإن توافرت لديهم الإمكانيات المادية. ومن بين أعراض هذا المرض - في تصوراتهِ - "أننا أصبحنا بعد التطور الاقتصادي الحديث، نفكر بالكميات ورموز الأرقام"<sup>(18)</sup>، حيث يضرب لنا مثلا بالصانع الأوروبي الذي كان في العصر الوسيط ينتج السلع لمجموعة صغيرة من عملائه، يكاد يعرف كلا منهم معرفة شخصية. وكانت حاجته إلى الكسب الذي يسمح له بالعيش على المستوى اللائق بمكانته الاجتماعية، هي التي تحدد ما تنتجه من سلع، وكان بالتجربة يعرف تكاليف الإنتاج، ولا تتطلب منه هذه العملية إعداد الميزانية أو إمساك دفاتر الحساب، إلا في صورة غاية في البساطة، وكذلك كان الفلاح المزارع فيما يختص بإنتاجه، لا يعرف التفكير في الكميات أو الرموز المجردة. أما مشروعات العمل الحديثة، فعلى العكس من ذلك تماما، إذ تتوقف على الموازنة المالية، ولا يمكن أن تعتمد على الملاحظات المحسوسة المباشرة، كما كان يفعل الصانع في العصر الوسيط في حسابه، فالمواد الخام، والآلات وتكاليف العمل والإنتاج، تقوم بالمال وتقارن وتوازن، وكل عملية اقتصادية يجب أن تحسب حسابا عدديا دقيقا، ولا يستطيع المدير القيام بالعمل إلا بواسطة الميزانية، والمقارنة الدقيقة بين العمليات الاقتصادية مقدرة تقديرا عدديا لكي يحكم إن كان عمله مكسبا مفيدا وإيجابيا<sup>(19)</sup>.

وقد شهد هذا الانتقال من المحسوس إلى المجرد تطورا كبيرا في العصر الحاضر، ولم يعد يقتصر على كشوف الميزانية، وحساب العمليات الاقتصادية حسابا عدديا معقدا، ذلك أن جل الأعمال في العصر الحديث، وبخاصة في البلاد الرأسمالية، يتعامل بالآلاف الدولارات فحسب، بل يتعامل كذلك مع آلاف الزبائن، وآلاف العمال والموظفين، وقد

(17) ريتشارد شاخت، الاغتراب، المصدر السابق، ص. 175 .

(18) Erich Fromm, *The same society*, op. cit.

(19) راجع محمد محمود، غربة الإنسان، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965، ص. 14 .

أصبح هؤلاء أجزاء من آلة ضخمة، وليس الفرد في هذه الآلة الضخمة سوى رقم من الأرقام أو وحدة مجردة.

وعليه، فإن مجموعة من الأسئلة تفرض نفسها نجمها فيما يلي : كيف يتم تقويم العمل؟ وكيف يتم تبادل المنافع بين الناس؟ إننا لا نستبدل سلعة بخدمة، إنما نستبدل بالخدمة أو العمل أجرا محدودا، أو قدرا معيناً من المال، أي أننا لا نتبادل نوعاً بنوع، ولكن كما بنوع، وليس المال إلا رمزا أو تعبيراً بالأرقام تقوم به العمل المحسوس. ومما يزيد من الرمزية والتجريد في حياتنا العملية، المبالغة الشديدة في تقويم العمل، وكان التقويم قديماً ينحصر في مجالين من مجالات الإنتاج هما : الزراعة والصناعة؛ فكان النجار الذي يصنع المقعد أو الطاولة يصنعها كاملين، وحتى وإن ساعده تلاميذه في بعض الأعمال، فقد كان يسيطر على عملية الإنتاج، ويشرف عليها بأكملها، من قطع الأخشاب إلى إخراج القطعة المطلوبة في صورتها النهائية . أما في الصناعة الحديثة، فالعامل ليس على صلة بالإنتاج كله، في أي مرحلة من مراحلها، إنه يشتغل باحثاً عن عمل معين يختص فيه، وقد ينتقل أثناء العمل من وظيفة إلى أخرى، ولكنه لا يتصل بالنتيجة بوصفها عملية كاملة، يحيط بها من جميع أطرافها، وهو في الأغلب يزداد تخصصاً وانحصاراً في اتجاه معين كلما تأثر على العمل .ويمكن تعريف وظيفة العامل الصناعي أو العامل الحديث بأنها الاشتغال بطريقة آلية في عمل لم تختراع له بعد الآلة التي تؤديه، أو عمل يكون المجهود البشري فيه أقل من تكاليفه بعد استخدام الآلات .أما الشخص الوحيد الذي له علاقة بالإنتاج الكامل فهو المدير، بيد أن الإنتاج بالنسبة إليه ليس سوى فكرة مجردة، ولا يهمه منه سوى قيمته في سوق التجارة (20). وليس من شك في أنه لا يمكن بغير التفكير بالكميات والرموز أن يتم الإنتاج على النطاق الواسع الذي أصبح ضرورة من ضرورات العصر الحديث .غير أن التفكير المجرد بالكلم والرمز في مجتمع بات النشاط الاقتصادي فيه أهم ما يشغل ذهن الإنسان، قد تجاوز دائرة الإنتاج الاقتصادي، وامتد إلى موقف الإنسان من كل شيء ومن كل فرد، بل وامتد حتى شمل موقفه من نفسه .

وإن كنا تحدثنا عن الإنسان، فإننا لا نتحدث عن هذا الشخص أو ذاك بكل خصائصه المحسوسة وصفاته الفردية، وإنما نتحدث عن نوع الإنسان الذي يشمل كل الأفراد، أو بعبارة أخرى نقوم بعملية تجريد وانتقال من المحسوس إلى المعنوي المجرد . ويتوقف تقدم التفكير الفلسفي والعلمي على زيادة القدرة على هذا التجريد . وليس معنى التخلي عن التجريد سوى العودة إلى الطريقة البدائية في التفكير .

(20) المرجع السابق نفسه، ص 15 .

هناك نوعان من العلاقة التي تنشأ بين الفرد، وأي شيء من الأشياء؛ فالفرد يستطيع أن ينشئ العلاقة بين نفسه وبين الشيء بكل خصائصه المحسوسة، فيبدو له بكل صفاته الخاصة به فريداً في نوعه لا يتفق غيره معه في مجموع هذه الصفات، ويستطيع أن ينشئ العلاقة بين نفسه وبين هذا الشيء في صورته المجردة، فلا يلتفت إلا إلى الصفات التي يشترك فيها هذا الشيء مع الأشياء الأخرى التي من نوعه، ثم بالتالي يبدأ في إبراز بعض الصفات، ويهمل بعضها الآخر.

إن العلاقة الكاملة المنتجة بشيء من الأشياء تشمل هذين النوعين من أنواع العلاقات، فيرى الشيء في صورته الفردية كما يراه في صورته العامة، أو يراه محسوساً كما يراه مجرداً. وقد تلاشت هذه العلاقة ذات بعدين أو وجهين في الثقافة الغربية المعاصرة، ولم تبق إلا العلاقة التي ترمز إلى الصفات المجردة للأشياء والناس وحدها، مع إهمال العلاقة بين الفرد والأشياء المحسوسة. وقد بدت الحقيقة الملموس للناس والأشياء التي نستطيع أن ننشئ العلاقة بينها وبين حقيقة أشخاص تتوارى لتحل محلها الحقائق المجردة، أو الأشباح التي تتمثل فيها مختلف الكميات، ولا يتمثل فيها مختلف الأنواع، فقيمة الشيء في ثمنه مقدراً بالمال وليس في مقدار فائدته أو مبلغ جماله، فأنت قد تشتري بيتاً تسكنه أو سيارة تركبها، وما دمت مالكا للبيت أو للسيارة فلا تبرح ذهنك فائدة البيت أو السيارة كليا، ويسرك أن تسمع أن سعرهما قد ارتفع في السوق، ويسوؤك أن تعلم أن سعرهما قد هبط. وقد تباع سيارتك بعد استخدامها بعام أو عامين، في حين أنها لا تزال نافعة، وذلك لمجرد ارتفاع سعرهما في السوق. ومن العجيب أن هذه النظرة التجريدية التي تحكم على الأمور بالكم أو بالمال، تتجاوز الأشياء إلى الناس، فتري أن ننظر إلى الفرد باعتباره تجسيدا لمبلغ معين من المال، فقيمة الرجل بمقدار ما يملك، ووظيفة الرجل كذلك تطفئ على حكمنا عليه كإنسان. فالمدير أثقل وزنا عند الناس من العامل، في حين أن إنسانية العامل قد تكون أعمق وأغنى من إنسانية المدير. ونلمس هذا التجريد كذلك في هذه العبارة: "أنتج فورد (Ford) عددا من السيارات".

وإذا وضعنا في اعتبارنا الواقع الملموس، عرفنا أن فورد (Ford) لم يصنع السيارات، وإنما وجه إنتاجها الذي قام به آلاف العمال، ونحن حينما نقول إن حامل الدكتوراه يتقاضى المبلغ كذا في الشهر الواحد، أو في العام الواحد، نتصور أن العلم شبيهه بالسلعة التي لها قيمة تبادلية في سوق الأشخاص.

إننا نعيش في أرقام وفي رموز مجردة، ليس هنا محسوس ولا واقع، وكل شيء ممكن واقعيًا وخلقياً. وهذا ما يسميه إريك فروم بظاهرة الانفصال، أي بعد الإنسان عن الاتصال المباشر المحسوس بالحوادث والأشياء. هذه الظاهرة النفسية تجعل المرء يحس بأنه غريب في هذه الدنيا، بل غريب عن نفسه، لا يشعر أنه مركز العالم، أو أنه خالق لعمله ومتحكم فيه. فقد باتت أعماله وما يترتب عليها سيدة عليه ومتحكمة فيه، بل يقدها، وربما يعبدها. الانفصال ظاهرة قديمة تختلف صورته من ثقافة إلى ثقافة، وهو في مجتمعنا الحديث يكاد يكون شاملاً وكاملاً، فهو يتغلغل في العلاقة بين الإنسان وعمله، وبينه وبين الأشياء التي يستهلكها، وبينه وبين الدولة وبين غيره من الناس. وتبهدنا مشكلة الإدارة إلى ظاهرة من أهم الظواهر في الحياة الانفصالية، والمقصود بها مشكلة البيروقراطية<sup>(21)</sup>، ذلك أن إدارة العمل الضخم وإدارة الحكومة تسييرها بيروقراطية من الموظفين. ونظراً لضخامة العمل الذي تتحكم فيه البيروقراطية، وما يترتب على هذه الضخامة من النظر إلى الأشياء ونظرة الناس إلى الرموز والأعداد؛ فقد كانت علاقة البيروقراطيين بالناس علاقة انفصال تام، لا علاقة اتصال مباشر، وليس الناس الذين يخضعون للإدارة إلا أشياء، ينظر إليهم نظرة غير إنسانية. فالبيروقراطي يفقد الإحساس في مجال نشاطه المهني، ويجب عليه أن يعامل الناس باعتبارهم أرقاماً أو أشياء لا حياة فيها.

وهناك وجه آخر من أوجه الفصل بين نفوسنا والأشياء التي نستهلكها، إذ يلاحظ أنه ليست هناك علاقة بين ما أشتريه وبين احتياجاتي العقلية. إن طريقة التملك آلية غير إنسانية، أما الطريقة الطبيعية الإنسانية فهي أن تكون هناك رابطة بين ما أحتاج إليه فعلاً وما أحصل عليه، فلا يظفر بالكتاب إلا من يشعر بالحاجة إلى المزيد من المعرفة، ولا يملك الصورة الفنية إلا من يستطيع تذوقها والاستمتاع بها استمتاعاً فنياً. ومما ينبغي التأكيد عليه هو أن عملية الاستهلاك يجب أن تكون عملية إنسانية محسوسة، لا صلة لها باحتياجاتنا البدنية والنفسية، باعتبارنا أشخاصاً لدينا إحساس، وشعور، وعندنا حكم. ويرى إريك فروم من جهة أخرى أن هناك قدراً كبيراً من انعدام الثقة. وحينما يقول شخص لآخر إن فلاناً رجل طيب القلب، فهو يبغى أن يبعث في نفسه الطمأنينة من ناحيته، لأن عدم الثقة بين الناس هو الشعور السائد. بل إن الحب والعلاقة بين الجنسين تبنى على

(21) البيروقراطية: طريقة في الحكم أو العمل تلازم الدولة الاستغالية، تتميز بتغليب المكتبية والروتين والاهتمام بالجانب الشكلي من الأمور، وفقدان الاهتمام بما هو جوهري في العمل، والانفصال عن الشعب وإهمال حاجاته. راجع بونو هاريوف، القاموس السياسي، ترجمة وإعداد: عبد الرزاق الصافي، بغداد، 1978، ص 90.

السطحية، ولا تمتد جذورها إلى القلوب، فهي علاقة المتعة المتبادلة، وليست علاقة الحب العميق.

هذا الفصل الذي حدث بين الإنسان وأخيه الإنسان قد انتهى بفقدان تلك الروابط الاجتماعية العامة التي تميزت بها أكثر المجتمعات ذات النظام الرأسمالي. إن المجتمع الحديث يتألف من أفراد، كل منهم غريب عن الآخر تربطهم معا مصالح شخصية، وضرورة نفعية، بيد أن الإنسان بالرغم من كل هذا كائن اجتماعي، في حاجة ماسة إلى المشاركة وإلى التعاون والتآزر التي تستند إلى المنفعة المحضة. فهو بحاجة إلى الإحساس بأنه فرد في جماعة متماسكة متشابكة، أساسها الحب الخالص، والتعاطف والمودة. هذه علاقة الإنسان بالإنسان، فما هي العلاقة بينه وبين نفسه؟

إن مؤلف كتاب "المجتمع السليم" يصنف هذه العلاقة بالسوقية أو التجارية، ولا يحياها كرجل عامل إيجابي فعال. وإن أنت سألت رجلا من أنت؟ أجابك بقوله: "أنا صانع"، أو "أنا كاتب" أو طيب، أو على أحسن الظروف: "أنا رجل متزوج"، أو "أنا أب لطفلين"، فهو يعين وظيفته التي يؤديها، أو قيمته في المجتمع الذي يعيش فيه، ولا يعين نفسه باعتبارها حياة لها ميولها ومشاعرها وإحساساتها.

تلك هي الطريقة التي يحيا بها الفرد حياته، لا كإنسان بحبه ومخاوفه ومعتقداته وشكوكه، وإنما يحيا حياته بتلك الصنعة المجردة مبتعدا منفصلا عن طبيعته الحقيقية التي يؤدي بها عمل بعينه في النظام الاجتماعي، ويتوقف إحساسه بقيمته على نجاحه أو على ارتفاع سعره في سوق العمل والمجتمع، يتوقف على قدرته على بيع نفسه صفقة رابحة، على قدرته على رفع سعره في السوق، فتتحول الصفات الإنسانية مثل الصداقة والشفقة إلى سلع تجارية، فإن فشل المرء في أن يساهم نفسه إسهاما مريحا أحسن أنه "إنسان فاشل"، وإن أفلح في مساهمته بنفسه أحسن أنه "إنسان ناجح". من الواضح أن إحساسه بقيمته يتوقف دائما على عوامل خارجة عن نفسه، ويتوقف على حكم السوق الذي لا يثبت على حال، والذي يقدر قيمته كما يقدر للسلع قيمتها وقلقا لقانون العرض والطلب.

إن الشخص الذي لا يقدر في نفسه الصفات الإنسانية، كما يقدر صفاته التي يعرضها للبيع أو الشخص الذي يفصل بين طبيعته وعمله، يعيش غريبا عن نفسه، يفقد كثيرا من الإحساس بالكرامة التي يتميز بها الإنسان حتى في الثقافات البدائية (22). إنه يكاد يفقد كل إحساسه بذاته، وكل شعور بنفسه كوحدة فريدة من نوعها، لأن إحساس المرء بذاته

(22) محمد محمود، غربة الإنسان، المرجع السابق، ص. 23.

ينبتق من وضع خبرته وفكره وشعوره وقراراته وأحكامه وعمله في خدمة نفسه. الإنسان المعاصر بصفة عامة، والإنسان في الغرب بصفة خاصة، يعيش عيشة قلقة متوترة وغير مستقرة، يشعر كأنه في انتظار شيء سيحدث، أو أمر سيقع لينتقله من هذه الحياة الرتيبة المملة التي يحيهاها، إنه يعيش غريبا في المجتمع الذي يحيط به، وكأنه نشاز بين أنغام مؤتلفة، وليس هذا الشعور بالقلق والتوتر قاصرا على الأفراد، بل يطال كذلك الجماعات والشعوب حتى أكثرها حضارة وتقدما. ولا يمكن للإنسان في هذه الوضعية أن يحقق ذاتيته إلا إذا بقي متصلا ومتماسكا بحقائق وجوده وبإنسانيته، وأن يجعل التكنولوجيا، كما ذكرنا آنفا - في خدمة القيم الإنسانية، ويجعل الإنسان سيدا على الآلة التي صنعها بنفسه، لا عبدا لها. وإذا انغمس في العمل الرتيب كلية، وإذا لم يستطع أن يرى سوى المظهر الخارجي للعالم، فإنه إن فعل ذلك فقد صلته بنفسه وبالعالم.

## قائمة بأسماء المصادر والمراجع

- 1) ريتشارد شاخت (Richard Chart) ، الاغتراب، ترجمة: كامل يوسف حسن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980.
- 2) كارل مارس، نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة وتحقيق: أنطوان حمص، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1970.
- 3) دفاثر فلسفية، إعداد وترجمة: الدكتور محمد سبيلا، والدكتور عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2006.
- 4) محمد رجب، الاغتراب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965.
- 5) محمد محمود، غربة الإنسان، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965.
- 6) جلال العشري، الاغتراب، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، 1967.
- 7) بونو هاريوف، القاموس السياسي، ترجمة وإعداد: عبد الرزاق الصافي، بغداد، 1978.
- 8) Vocabulaire, *Technique et critique de la philosophie*, par André Lalande, Paris, 1968.
- 9) Fromm Erich, *The sane society*, New York, ed. Rinehart, 1955.